رسالة الطب

في الحياة

لصاحب السعادة الدكتور سليمان عزمي باشا

البيئة والمجتمع والوراثة تأثير في شخصية الانسان ، واذا ما تهذبت غرائزه بالتربية والتعليم تطبع بحميد الصفات فابتعد عن القبائح

فالطبيب الطب المتى اذا ما حصل على تعليم راقٍ ومتين يصبح ذا شخصية بارزة وأخلاق عالية وكفاية فنية عظيمة ، وخليقاً بأن يمتاز على معاصريه ببعد النظر وسعة الصدر والمقدرة على فهم الامور واخراج الاستنتاجات السليمة وقدّر المسائل حق قدرها ، لأن فن الطب ودراسته والعلوم الطبية وما يتصل بها عوّدته البحث والاستنتاج وربط الامور بمسبباتها وتائجها كما عودته المثابرة والصبر والتأني وتقدير المسئولية — فمسئولية الطبيب في فنه تتصل بأهم وأنفس شئون الحياة (الروح — الصحة والعافية — الحياة) وما عدا ذلك من مال وكسب وجاه وشهرة وافتخار وتنعم بزينة الحياة وملذاتها وما يعده طلاّبها سعادة ونعيماً وغاية يسعون ورائه في هذه الحياة الدنيا هو عند زهادها مظاهر خلابة صدها الناس وتغالوا في الاستكثار منها ، ولولا هذا التباين في مقاصد الناس لفسدت الأرض. وقد رأيت سوق المادة للاسف في هذا العصر ، ولا أزعم ان الأطباء براء من كل هذا فهم بشر ولكل انسان وجهات نظر تختلف عن وجهات نظر غيره وكل يرى سعادته وهنائه في ادراك ما تصبو اليه نفسه — والسعادة فنون ولكل فن عشاقه

بل قد رأى بعضهم السعادة لدى المجانين لأنهم سعداء في اعتقادهم وفيما تركز في ذهنهم وشغلهم عن كل شيء آخر

وهذا البحث الذي كتبه أخيراً أحد أساتذة علم النفس وترجم في مجلة « المختار » تحت عنوان « العقل في الجنون » يوافق قول الشاعر العربي « وما لذة العيش إلاّ للمجانين »

فهم يعيشون في دنيا من الاحلام بعيدون عن دنيا الحقائق والتفكير والهموم ، لاهون عما هم فيه ، فرحون بما لديهم غافلون عن كل شيء آخر من أمور الحياة ، لا يشعرون مسؤولية ولا تقع عليهم تبعة تصرفهم — وما أنسب قول الشاعر العربي في ذلك

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

واذا كانت الماديات ضرورية فهي كالملح للطعام لا تكون إلاّ بقدر، ولا يجب أن تتضاءل ازاءها الفضائل وتتلاشى المزايا الطيبة الخالدة ، فكلّ شيء مصيره الى الفناء إلاّ الشخصيات الانسانية التاريخية وأعمالها المجيدة النافعة فانها باقية على مرّ السنين والايام

وقد أثرت العلوم المادية المحسوسة في الطب نفسه ، فبعد ان كان الطبيب يطبق معلوماته ويقيس بخبرته ويحكم بعقله الراجح فيما يعرض له من الامور دخلت المادة في العلم وأصبحت التحاليل والمجاهر والأشعة والمقاييس مهيمنةً على الفن ونسبت اليها الفوائد السحرية في سرعة التشخيص ونجاح العلاج وأهملت الى حدٍّ ما شخصية الطبيب وتأثيره النفسي في اعتقاد المريض — لا أقول ذلك لانقص من قيمتها وحقها فهي ذات فائدة عظيمة — ولكن ألاّ يضحى قبلها شخصية الانسان ، فليس العلم بذاته هو الذي يقرر ، وليست الآلات والاجهزة هي التي تفكر، ولكن العالم هو الذي يشاهد ويستنتج ويقرر

فاذا اتخذنا الطب مثلاً فقد بحث الانسان في الطبّ وقرن بحثه بأمراض الانسان والحيوان، وغيّر وبدّل في النظريات ليصل الى دفع الامراض وتخفيف ويلاتها . ولو تتبع الانسان النظريات الطبية من مبدأها الى الآن لوجد اننا الآن بعيدون كل البعد عن كثير من النظريات الاولى بل ذهبنا الى أبعد من ذلك ونظرنا اليها كأنها خرافات — ويجب ألاّ نحتقر واضعيها لانها كانت اول درجة من درجات السلم ارتقينا منها ثم صعدنا درجة فدرجة الى ان وصلنا الى ما نحن عليه ، ثم عدلنا البناء لهذا السلم وشيدناه على أساس أمتن وبمادة بنائية أقوم ، والفضل للمتقدم

والطب كغيره من العلوم لا تكون له فائدة الاّ اذا عمل به . وفي هذه الصناعة الشاقة يجب على الطبيب الماهر ان يربط ما يشاهده من اعراض المرض باسبابه وتأثيرها في وظيفة اعضاء الجسم . خذ القلب مثلاً — فاذا ما شخص الطبيب آفة عضوية في القلب محدثة تغيراً في انسجته فلا يقف بحثه عند هذا الحد بل يجب أن يتعرف تأثير هذا المرض في وظيفة القلب، وهل القلب يؤدي وظيفته كاملةً او ناقصةً ، وهل عاقة المرض عوقاً تاماً او غير تام عن أدائها — وهذه النتيجة التي ينبغي أن يصل اليها الطبيب هي من أدق وأشق النقط في عمله لانه يتوقف عليها سير العلاج

ويستلزم الوصول الى هذه النتيجة فحص باقي اعضاء الجسم لارتباط الدورة الدموية بها جميعاً، كما ان من أهم ما يعنى به الطبيب فحص الدورة الدموية من قلب وشرايين وأوردة واوعية شعرية وضغط دم في حالة أمراض اعضاء الجسم الاخرى ، لان المرض وان ظهر موضعياً في عضو ما فانه يؤثر في كامل بنية المريض، ولاسيما الامراض الحادة والحمية منها على

وجه الخصوص . والانسان متغير متقلب في كيفية تأثر بنيته بالامراض، ولكل فرد خواصه. وفي هذا الجو العاصف المتملىء بالصعوبات والشذوذ ماذا يفيد العلم وماذا تفيد آلات الفحص والمعامل بدون ذكاء الطبيب وسلامة تفكيره وإصالة رأيه وكفايته ومقدرته على تطبيق العلم

خذ أبسط الامثلة : ماذا يفيد علم الجراحة اذا لم يكن عند الجراح الانامل الموهوبة لاتقان اجراء العملية، وماذا يفيد العلم والانامل الموهوبة اذا لم يكن الجراح سريع الخاطر حتكتهُ التجارب فيقابل ما يطرأ عليه اثناء العملية من الصعوبات وتمكنهُ خبرته ان يقرر متى يقدم على اجراء العملية ومتى يحجم عن عملها — ويقاس على ذلك كله ما يسعه فكر القارىء من الاحتمالات

خذ مثلاً آخر للدرس : لا يكفي أن ينبغ طبيب في فنه ليكون أستاذاً قديراً بل هنالك مواهب ومميزات أخرى يجب أن تتوفر فيه ، منها حسن الالقاء والمقدرة على التعبير بألفاظ سهلة سلسة بسيطة بليغة ، وأن يكون قادراً على المسايرة مع عقلية الطالب والامتزاج بحالته النفسية فيستعمل خبرته وتجاربه أثناء القاء الدرس فلا يكون شبه اسطوانة فونوغرافية، يلقي ويعيد ما يقرأه في بطون الكتب

ويجب أن يكون في علمه وأخلاقه وآدابه وكفايته ومواظبته مثلاً يحتذى به ليتشرب الطلبة بروحه ويأخذوا عنهُ أحسن المواهب ، هذا اذا قصد تكوين جيل صالح سليم مقدر للمسئولية ، حي الضمير ، طاهر الذمة ، فيكون المثل الاخلاقي لهم يأخذون عنهُ فلا يكون كما قال الشاعر :

خذ بقولي ولا تنظر الى عملي ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري

بل يكون كالقدوة لهم . ولا ينهى عن خلق ويأتي مثله . وقد قال جوته شاعر الالمان في هذا المعنى « لا تطالب أحداً إلاّ بما تطالب به نفسك أولاً »

المعلم والاستاذ والطبيب يجب أن يعدّ كل منهم عمله ومهنته كعلم وصناعة وفن ويؤدي لكل منها حقه فيزيد علمه بكثرة البحث والاطلاع ويتقن صناعته بكثرة الممارسة والتجارب لتزيد خبرته ومهارته ويتقن فنه بالدقة في القول والعمل وبث روح الاخلاص في المهنة مع العطف المشبع بروح الفن

فبالتعليم والتثقيف ومعرفة الكليات والجزئيات وقوة الملاحظة والذاكرة والابحاث الشخصية والمشاهدة والقياس وسعة الاطلاع وحسن الاستنتاج وكثرة المرانة والتجريب يصل الطبيب الى الحكم الصحيح في أي مسألة تعرض عليه ، ويكون أسرع من غيره في استنباط الحقيقة وربط الاسباب بمسبباتها

وماذا يفيد العلم والتعليم اذا لم يكن للطبيب شخصية قوية بارزة وأخلاق متينة يقدر

بها المسئوليات التي يواجهها فيسخر العلم لفائدة الانسانية في أسمى معانيها وهي حفظ حياة أخيه الانسان والمحافظة على صحته وعافيته ومنع الامراض عنه وشفاؤه منها اذا ما اثابته . فيلبغي للطبيب أن يعتز بكرامته ويستقل برأيه دون مكابرة ولا عناد ويسمو بشخصيته فوق كل الاعتبارات، ومن هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون

فالذكاء والنشاط وحب الاتقان والاخلاص للفن وصدق العزيمة وقوة الارادة والصبر والمثابرة والصدق صفات ملازمة لشخصيات الوثابة ، لا الشخصيات القانعة بالقليل مما تعلمت من علم أو من فن

ولا يكفي أن ننجح فيما تعلمنا ونقتصر عليه بل يجب أن نبحث وننتج ونزيد العلوم والفنون فلا نكون عالة على الآخرين نأخذ ولا نعطي ونتعلم ولا نزيد ، إذ لا ينبغي أن يكون الانسان أنانيًا يأخذ ولا يعطي فقد قتلت الأنانية النفوس . ويجب أن نفكر في غيرنا لنعيش كلنا سعداء

الأنانية تورث الكبرياء والغيرة والحسد والاستئثار بالخير والايثار يورث التواضع والغبطة والمحبة وتعميم النفع والخير والعلم بدون الأخلاق المتينة جسد بلا روح

رحم الله (شوقي) حيث قال :

صلاح أمرك للاخلاق مرجعهُ فقوّم النفس بالاخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم

ورجال العلم والمهن والادارة والصناعة والتشريع وأمثالهم ، والاطباء على الخصوص ، ان أساءوا استعمال فنهم يضرون أكثر مما ينفعون، ويتمثل اذن مرضاهم بقول من قال

تداويت من داء بداء واقتل ما أعلك ما شفاكا

الطب والرحمة متلازمان ولذا ندخل الطب في شؤون المرضى الاجتماعية أكثر من غيره من المهن ، وهو علم شاق متعب صعب ، ولكنه كله رحمة وعطف، به كثير من التضحية ونكران الذات

واذا كان فن من الفنون خليقاً ان تمارسه الملائكة او رجال الدين فهو صناعة الطب، ولذا يسمي الناس الأطباء ملائكة الرحمة ورسل الانسانية . ولو رجعنا للتاريخ لوجدنا من القرون الوسطى وما قبلها من العصر المسيحي ان كثيرين من الرهبان كانوا يتولون التطبيب وكانت الأديرة في أوربة ملجأ للمرضى. ولا غرابة في ذلك فان رجال كل دين يرون من التدين السير على خطوات رسلهم وأنبيائهم، وقد أتى المسيح عليه السلام بمعجزات طبية عديدة وحث على الرحمة والمحبة والسلام ، فمن المعقول اذن ان يسير الرهبان والمتدينون في طريق التطبيب والعناية بالمرضى لما في ذلك من رحمة وحنان وعطف على الفقراء والضعفاء والبائسين

وكتب تاريخ الطب حافلة بما يثبت ذلك ، ومع انتشار العلم والحضارة الحديثة أخذت المستشفيات ومدارس الطب تنفصل شيئاً فشيئاً عن أماكن العبادة الى ان صار أغلبها معاهد علمانية ، ولا يزال بعضها الى الآن دينية أو شبه دينية — ويروي لنا التاريخ ان أول مستشفى شيد في انجلترة شيده سنة ١٠٨٤ رئيس الاساقفة لانكفران Lane franc وسماه مستشفى سنت جون St. John كما ان بها مستشفيات اخرى شيدها في أول أمرها رجال الدين

وفي العهد الأخير زاد الاهتمام بشؤون المرضى الاجتماعية واهتمت الملكة فكتوريا بهذه الناحية غاية الاهتمام واقتفى أثرها من جئن بعدها من الملكات وساعدن وعضدن المشروعات التي تؤدي الى تحسين شؤون المرضى الاجتماعية ونجحت أعمال البر والاحسان التي من هذا القبيل في انجلترة بفضل اهتمامهن بها وغيرتهن عليها وتشجيعهن لها

ويجمع المال لهذه الجمعيات عن طريق الهبات والتبرعات والاشتراكات وجمع النقود في ايام معلومات . ويدير هذه الجمعيات هيئات منظمة ، للسيدات والاطباء فيها أكبر نصيب ، لأن السيدات يغرزن ذوات نفوس شفيقة رحيمة ، والاطباء بحكم صناعتهم ذوو شفقة ورحمة ومعرفة بمواطن البؤس والشقاء ، فهم المرشدون الهادون لهذه الجمعيات ولهم أكبر نصيب في تنفيذ اغراضها ، فالطبيب بحكم صناعته يتصل بجميع الطبقات : الفقير والمتوسط والغني ، ويراهم عند بؤسهم ومرضهم وحاجتهم وضعفهم ، فهو عليم خبير وهو أقدر الناس على ارشاد الأغنياء والسلطات الى وجوه البر المختلفة والى أفضل ما يعمل لتخفيف الضراء عن الانسانية

وهكذا صدق قول جلادستون السياسي الانجليزي الخطير « سيأتي الوقت الذي يكون فيه الأطباء مرشدي الأمم » . وليست رسالة الأطباء في هذا الجيل كما كانت عليه في العصور الخالية مقصورة على علاج الفرد ومنع المرض وتخفيف آلامه وويلاته عن الأفراد بل اتسعت واتسع أمامها المجال وأصبح طب الفرد وطب الجماعة وطب الوقاية والعلاج وشؤون المرضى الاجتماعية داخلة في دائرته ، وتفرع الطب الى فروع عديدة . ومن النصائح التي ذكرها الدكتور يوسف مراد في كتابه شفاء النفس الوصية الآتية ، اذكرها لأنها كأنما خصصت للاطباء « لا يمكن ان تكمل شخصيتك الا اذا شعرت فعلاً بأنك عضو عامل في مجتمع تسعى دائماً لخدمته مهما كانت طبيعة عملك — دعم الأواصر التي تربطك بأفراد اسرتك ومهنتك وقريتك ووطنك بل بأفراد الانسانية جمعاء . . . . ان الأمراض النفسية لا تبعد ان تكون أمراضاً خلقية وان أساس الصحة العقلية هو في جوهره تغلب الايثار على الأنانية والتعاون على المنافسة والتسامح على الحقد والبغضاء »

لا يعنى الأطباء بالحكم أو بالسياسة كما يفهمها الآخرون وقلما يجادلون بل هم عمليون لهم سياسة طبية اجتماعية خاصة بهم بل تشمل تقريباً كل مرافق الحياة وتدخل في الشؤون الطبية

والاجتماعية كلها للخير وللبر ولاسعاد الانسانية ، وتخفيف ويلات الأمراض. فأول من فكر في ادخال شؤون المرضى الاجتماعية في دائرة الأطباء السير توك والكولونيل متنفير في سنة ١٨٩٥ في مستشفى رويال فري في لندن ، ثم نظم معهداً لتدريب السيدات على هذه الأعمال سنة ١٩٠٧ واستحق الانعام عليه بلقب سير فصار اسمه سير شارلز لوك. والحياة نضال مستمر والأطباء يجيدون النضال على طريقتهم وأسلوبهم في ذلك غير أساليب الآخرين فهي خالية من الشدة والعنف ، كلها لين ورفق لأن البيئة التي يجولون فيها تستمد الرحمة والبر والعطف

كل طبيب مثقف يتخذ مثله الأعلى من تأثير البيئة والتربية والتعليم والتوجيه الصالح فيضع نصب عينيه آمالاً يصبو اليها . والطبيب يرى مثله الأعلى أن يكون رجل علم وصناعة وفن تقوم جميعها على أسس علمية متينة وأخلاق سامية — وبهيئه عمله أن يكون رجل بر وخير وانسانية . واختلاطه بكل طبقات المجتمع ودرسه لعقلياتهم وأمزجتهم المختلفة يحتم عليه أن يكون ذا ثقافة بسيكولوجية لينجح في تأدية رسالته لأن الطب أقرب العلوم الى البسيكولوجيا العملية ، فعمله ليس مقصوراً على الافراد بل والجماعات . وكل طبيب حاز شهرة في فنه عنده خبرة بسيكولوجية عملية وان لم يكن قد درسها من قبل

وكذا الحال في رجال الاعمال الناجحين في أعمالهم التي تحتاج لمعاملة الافراد والهيئات والحكومات

— وقد اتسقت واجبات الطب وامتدت الى النظر في الشؤون الاجتماعية فلا مندوحة للطبيب عن أن يتصل بسلطة المجتمع الذي يعيش فيه ويستعين بذوي الجاه والنفوذ والمال لتتوفر له وسائل النجاح في تأدية رسالته

واذا فكرنا قليلاً نجد انهُ لولا التعاون الذي تحتمه المدنية والحضارة لما امكن أي انسان أن يؤدي عملاً مجدياً منمراً مفيداً . فالعلوم والفنون والتعليم والتربية والصناعة والقضاء والتشريع والادارة وغير ذلك من مختلف الاعمال كلها تتعاون لحفظ كيان الحضارة وترتقي الامم بتوثيق هذا الارتباط وتنحط بتفككه . والعامل البسيط والصانع والفلاح والخادم الى آخرهم يؤدي كل منهم وظيفة انسانية نافعة للمجتمع . قال الشاعر

فالناس للناس والدنيا مكاتبة بعض لبعض وان لم يشعروا خدمُ

وقد كان للطب اثر كبير في نجاح المشروعات العظيمة . وفي التاريخ الحديث عبرة من فتح قناة بانما اذ كان لتأثير انتشار الملاريا أثر سيء على نجاح المشروع في اول امره . وعند ما واجهت امريكا هذه المشكلة بالاحتياطات الوقائية والعلاجية عادت الصحة الى العمال وامكن اتمام هذا العمل المجيد . وقد حفظ التاريخ بين صفحاته فوز الطب وانتصارهُ الباهر في اتمام المشروعات الحيوية العظيمة بعد أن أخفق المال وحده في اتمامها